

اتحاد شمال أفريقيا

للأستاذ عبد المجيد بن جلون

مضى عصر الموت والانحلال في شمال أفريقيا وبدأ عصر جديد يلوح في الأفق ، وبذلك لاتضيع السنوات الطويلة التي قضاه في الكفاح سدى . وقد تطورت قضايا تونس والجزائر بحيث أصبح من المستحيل تجاهلها . فلا يوافق الإستعمار أن تزعم مآثمه ، وللسلطات المحلية أن تتصرف كما تريد ، فإن الفترة الحالية لن تدوم طويلا . إن حالة الضغط والإضطهاد والقوضى التي تشمل اليوم هذه الأقطار العربية الشقيقة ، إنما هي مظاهر انهيار يشق طريقه إلى القبر بخطى حثيثة ، أما هذه النهضة الوطنية المكافئة الصابرة فهي طليعة عصر جديد . ذلك أن قضايا شمال أفريقيا تخرج من حدودها الضيقة المحدودة ، إلى حدود أوسع لم يكن لها عهد بها من قبل ، فصرتها يرتفع اليوم في المواسم العربية كلها كما يرتفع في باريس ولندن ونيويورك ، وليس هناك من يستطيع أن يقف في وجه شعب صمم على أن يعيش مهما كان الثمن الذي يدفعه في سبيل أن يعيش .

وللإستعمار القاسي الشديد مساوى لا تحصى ، ولكن له حسنة في هذه البلاد ، فقد عرف الناس بواسطته أن الحديد لا يفله إلا الحديد ، ولذلك لم يوجد فيها من يحاول اصطلياد الفرص لأنه لا توجد فرص ، وإنما عباؤا جهودهم للمقاومة الطويلة الحافلة بالصبر والكدح والشقاء ، فأكسبهم ذلك قوة قل أن يتسلح بها شعب دون أن تصل به إلى النجاح ، وبذلك برهنوا على أن بلادهم — بالرغم مما قاسته — غير قابلة للموت .

أضف إلى ذلك أن الوضعية في شمال أفريقيا غير طبيعية ، فالناس فيها يحكمون بأساليب بيده كل البعد عن أن ترضى ما يصبون إليه بعد أن ترفقوا إلى الحياة الحديثة ، ونزعوا إلى الحرية والإستقلال . وإذن فليس هناك بد من أن تخير الحالة الحاضرة سواء رضى السادة المستعمرون أم كرهوا ؟ ذلك أنهم يقفون في وجه التاريخ ، ولن يكون من اليسير الوقوف في وجه التاريخ طويلا ...

ولست أكتب هذه الكلمة لأتحدث عن الإستعمار الفرنسي

ومساوئه الشهيرة ، وإنما أريد أن أتحدث عن نوع النظام الذي يجب أن تخضع له هذه البلاد الشاسعة بعد أن يزحزح التاريخ هؤلاء السادة الواقفين في وجهه . ماهى قواعد السياسة في شمال أفريقيا الحرة ؟ هل بظل التقسيم الحالي قائما أم يقوم مقامه اتحاد ؟ يظن كثير من الناس أن تقسيم شمال أفريقيا الحالي يرجع إلى الإستعمار الفرنسي ، وهذا ليس بصحيح . فقد عرفت شمال أفريقيا على هذا النظام منذ زمن بعيد ، حتى قبل الإسلام خضعت أجزاؤه المختلفة إلى مقادير متباينة ، بحيث لم يستطع أحد أن يوحد في ظل الحرية أو الإستعمار ، إلى أن جاء الإسلام ، ولم يكد ولاية القيروان يوحدون تلك الأراضي حتى تصدعت هذه الوحدة من جديد . ويكفى أن نقول إن شمال أفريقيا في تاريخه الاسلامي الطويل لم يتوحد إلا مرتين ، أولاها في عصر الفاطميين إلى أن رحلوا إلى مصر ، وثانيتهما في عصر الموحدين ملوك مراکش إلى أن انفصل عنهم بنو زيان في الجزائر ، وبنو حفص في تونس ، وهكذا تصدعت وحدة شمال أفريقيا لآخر مرة في القرن السابع الهجري بعد أن لم يكتب لها النجاح في محاولتين اللتين أسلفنا الإشارة اليهما . وكان هذا على أساس قيام ثلاث دول هي مراکش والجزائر وتونس ، وقد ظل الأمر على ذلك منذ هذا الحين .

ذلك هو التاريخ ، وهو دون شك عامل حيوى لا يجعل إغفاله . يد أن ظروف الحياة في العصر الحديث قد تغيرت ويات نظام العالم يدعو إلى قيام كتل دولية كبيرة ، تقوم على أساس التعاون وتبادل النعمة . فإذا أعدنا النظر في اتحاد أو وحدة شمال أفريقيا على ضوء هذا استطعنا أن نلاحظ أشياء جديدة .

هذه البلاد شديدة التشابه من الناحية الجغرافية ؛ فهي مثل الجزيرة الخصبية المحصورة بين رمال الصحراء في الجنوب والشرق ، ومياه البحر في الشمال والغرب . والإختلاف في الظواهر الطبيعية بينها جميعا يشبه اختلاف هذه الظواهر في كل قطر على حدة . ولذلك فإن هناك تشابها كبيرا بين السكان في الجنس والمادات والمخلقة والتنوع .

ولا توجد حدود طبيعية بين هذه الأقطار ، ولذلك ظلت حدودها مطاطة وغير مستقرة خلال فصول التاريخ .

وتاريخها شديد الإرتباط في حوادثه بالرغم من انفصالها

سقوطها مقدمة لسقوط جارتها معاً . وإذن فإن من أبسط الدواعي إلى قيام « اتحاد شمال أفريقيا العربي » هو أمن هذه البلاد الإجماعي في المستقبل . وليس ذلك لأنها تستطيع الدفاع عن نفسها منفردة ، ولكن لأن الحدود بينها ليست طبيعية ولذلك لا يمكن أن يبنى الدفاع عن واحدة إلا على أساس الدفاع عنها جميعها . والحرب الأخيرة نفسها تقدم الينا أسطع مثال على هذا ، إذ كان معبر هذه الأقطار واحداً حين انتصر الألمان ، وواحداً حين انتصر الحلفاء ، وعجز المارشال رومل عن الصمود في تونس أمام جيوش الحلفاء التي احتلت الجزائر ومراكش . وعلى ذلك فنستطيع أن نصل إلى نتيجة منطقية سليمة هي أن شمال أفريقيا لن يستطيع أن يكون إلا مجتمعاً ؛ وسوف يكون اتحاداً مصدر قوة ، ولن تتمتع واحدة من بلاده باستقلالها كاملاً مادامت إحدى جارتها محتلة بالجيوش الأجنبية . وإن السبيل الوحيد إلى ذلك هو قيام « اتحاد شمال أفريقيا العربي » . وإلا فسوف يكون من سخرية الأقدار أن يجمع بينها الاستعمار ثم يمجز عن ذلك الاستقلال .

عبد الحميد بن جلود

بعض المؤلفات التي ظهرت أخيراً:

- ٥٠ الرسالة الخالصة ... بقلم عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية
- ٥٠ أقوالنا وأفعالنا ... تأليف محمد كرد علي بك رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق
- ١٥ المشكلة الاخلاقية ... الدكتور عبد الحليم محمود ترجمة الأستاذ أبو بكر زكري
- ١٥ دفاع عن العلم ... : تريب الدكتور عثمان أمين
- ٢٥ يسألونك ... : تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد
- ١٠ أثر الشرق في الغرب: ترجمة الدكتور فؤاد حنين على
- تطلب من أصحاب دار أحياء الكتب العربية

عيسى البايي الحلبي وشركاه

ت ٥٠٨٥٦ مصر

السياسي ، وأغلبية السكان السائبة مسلمون وهم متشابهون في ظروف الحياة ، ومستوى الفس ، وتركيب العقلية ، وكل اختلاف في طبائعهم يرجع إلى عوامل استثنائية لن تلبث أن تزول مع انهيار الأنظمة الحالية . أضف إلى ذلك خضوعها في العصر الحديث للدولة واحدة هي فرنسا - مع استثناء الجزء الشمالي الصغير من مراكش الخاضع للنفوذ الإسباني ولا يتعدى سكانه المليون نسمة - ومهما تعدد الأنظمة وأسمائها ، فقد استطاع الاستعمار الفرنسي فيها بصيغة واحدة ، لا يختلف في جوهره مطلقاً . قام فيها بإصلاحات مادية واحدة ، وأثار فيها مشاكل واحدة أيضاً ، هي مشكلة المنصرية وزرع الأراضي وكبت الحريات العامة ومحاولة التوفيق بين التقدم الاقتصادي والاستثمار وبين الحيلولة دون تطور الأهالي واستفادتهم من التقدم الاقتصادي ، فنتجت عن ذلك حالة واحدة متشابهة .

ثم إن الموقف الفرنسي إزاء أمان هذه البلاد القومية موقف واحد وهو موقف الحريص على الاحتفاظ بكل شيء وعدم التسامح حتى في المسائل الصغيرة التي لا تقدم ولا تؤخر في صميم النظام الحالي وقد قلنا ونحن معتمدون على طبيعة الحياة وقانون التطور - إن هذه البلاد سوف تحقق أمانها القومية مهما فعل الفرنسيون . فالسؤال الذي نريد أن نطرحه الآن هو : هل في استطاعة هذه الأقطار أن تكون بعد تحررها من النظام الحالي دولة واحدة أو أن تؤلف اتحاداً سياسياً ؟

لقد رأينا أن التاريخ لا يقدم الينا أمثلة مشجعة على التفكير في قيام دولة واحدة مؤلفة من شمال أفريقيا العربي ، ولذلك فنحن نرى استحالة قيامها في المستقبل القريب . أما يمكن أن يقوم فهو « اتحاد شمال أفريقيا العربي » وهو مشروع يجب إطالة التفكير فيه ، ومحاولة بنائه على أسس مستمدة من التاريخ كان هذا الاتحاد متعذراً في الماضي يوم كان التاريخ لا يسمع به لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها في هذه المجلة . أما اليوم فإن المسألة الحديثة قد صهرت هذه الأقطار ، وقربت فيما بينها ، وجعلتها تفكر في مشاكل واحدة ، وتقاسي آراء واحدة ، وتكون على اتصال دائم بحكم النظام المتشابه التي تخضع له ، وتبعتها للدولة واحدة في العصر الحديث .

كان سقوط الجزائر في يد الأتراك إيذاناً بسقوط تونس في يدهم أيضاً . ثم سقطت الجزائر مرة أخرى في يد الفرنسيين فكان